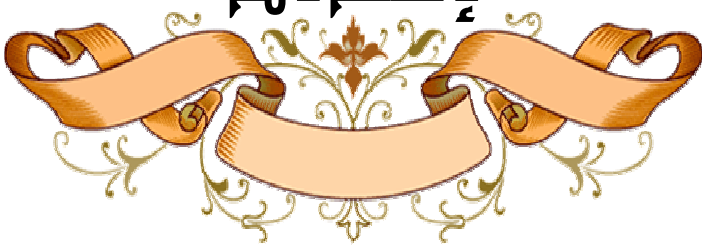
أسلوب الرفق
في دعوة إبراهيم عليه السلام لأبيه

إعداد



الدكتور

حسين عبد عواد الدليمي

التدريسي في كلية الإمام الأعظم الجامعة

قسم الدعوة والخطابة والفكر / الأنبار

ملخص البحث

تحدث القرآن الكريم عن بعض الأنبياء والمرسلين، وعرض لنا نماذج من قصصهم وسير حياتهم، ومواقفهم مع أقوامهم، وطريقة دعوتهم لهم، وما جرى بينهم وبين أولئك الأقوام، وما انتهى إليه الأمر من إهلاكِ الله تبارك وتعالى للكافرين، ونصرتهِ للنبيين والمرسلين، ومن تبعهم من المؤمنين.

وكان من بين أولئك الأنبياء والمرسلين الذين فصّل القرآن الكريم منهجهم الدعوي، ومواقفهم مع أقوامهم هو سيدنا (إبراهيم عليه السلام) الذي يلحظ من يقرأ الآيات القرآنية طريقة دعوته لأبيه، وطريقته في دعوة قومه، وطريقته في دعوة الملك الذي عاش في زمنه، وما صاحب كل تلك المواقف من تداعيات متنوعة.

وما يهمني في هذا البحث هو (دعوة إبراهيم عليه السلام لأبيه)، وما اتخذه من أساليب في تلك الدعوة. وقد أحببت التركيز على الأسلوب المهم بين تلك الأساليب وهو (أسلوب الرفق) في دعوة إبراهيم لأبيه الكافر، الذي صار استخدام هذا الأسلوب سُنّة حسنة لكل من أتى بعد إبراهيم عليه السلام من الدعاة والمصلحين.

وقد اشتمل بحثي المتواضع على مبحثين، خصصت **المبحث الأول** للتعريف بمصطلحات البحث، واحتوى على أربعة مطالب، ركزت في **المطلب الأول** على تعريف الأسلوب لغة واصطلاحاً، وفي **المطلب الثاني** على تعريف الرفق لغة واصطلاحاً، وفي **المطلب الثالث** على تعريف الدعوة لغة واصطلاحاً، وأما **المطلب الرابع** فخصصته للتعريف بسيدنا إبراهيم عليه السلام.

أما **المبحث الثاني** فقد تحدثت فيه عن أسلوب الرفق في دعوة سيدنا إبراهيم (عليه السلام)، واحتوى على **تمهيد**، ومطلبين، خصصت **المطلب الأول** لبيان معالم الرفق في دعوة إبراهيم عليه السلام وفيه خمسة فروع: **الفرع الأول**: تأدب إبراهيم عليه السلام مع أبيه الكافر، **والفرع الثاني**: الاعتماد على الحجج الملموسة، **والفرع الثالث**: أثـــر العلم في الدعوة إلى الله، **والفرع الرابع**: بيـــان زيف المعبود الباطل، **والفرع الخامس**: إنكار دعوة الإيمان سببٌ للعذاب. وأما **المطلب الثاني** فقد تحدثت فيه عن: المستفاد من دعوة إبراهيم عليه السلام لأبيه للدعوة والدعاة.. واشتمل على سبعة فروع، **الفرع الأول**: الأقارب أولى بالدعوة من غيرهم، **والفرع الثاني**: اللطف والرفق لا يعني المداهنة، **والفرع**

الثالث: لا دعـــوة ولا إصـــلاح بلا علم ومعرفة، والفرع الرابع: الإنكار والتهديد سبيل المعاندين، والفرع الخامس: الحلم.. ومقابلة الإساءة بالإحســـان، والفرع السادس: القرابة لا تعني الهداية بالضرورة، والفرع السابع: الرفق سنة دعوية متواترة.

Abstract

The Kind Attitude of Abraham (PBUH) towards His Father

Dr. HussainAbidAwad Al-Delaimi

Al-ImamIl –Adham University College- Anbar

The Holy Quran has surveyed certain prophets and exposed to us certain samples of their stories and careers and also their attitude towards their people and the approach they followed and what it ends with the destruction of the unbelievers.

Among those prophets mentioned the Holy Quran and whose attitude towards their nations is prophet Abraham (PBUH).It clear from reciting the Quranic verses the method of calling his father, his people and the king who lived during his era. What is important in this research is his invocation of his father and the methods taken during such an invocation. I have concentrated on the style (kindness) in his invocation to his father where this style becomes a well tradition to the coming generations.

The research included two parts: the first is specified for the definition of the research. It includes four requirements. In the first requirement I concentrated on the definition of the style, in the second the definition of kindness, in the third the definition of invocation while the fourth one is specified for the definition of Abraham (PBUH).

The second part surveys the style of kindness in Abraham s (PBUH) in his invocation to his people. It includes an introduction and two requirements. The first requirement is to pin point the features of kindness. It includes five branches; the first is Abraham s well-mannered towards his unbeliever father, the second branch is depending upon the tangible proofs, the third is the effect of knowledge in the Abraham s (PBUH) invocation to Allah. The fourth one includes the fallacy of the worshipped idol and the fifth implements that reason behind torture is the denial of belief. In the second requirement I talked about Abraham s (PBUH) invocation towards his relatives whereas in the second I pointed out that kindness does not mean flattery. The third requirement includes that there is neither invocation nor any amendment without knowledge. The fourth includes that denial and threat are the ways of resisting. The fifth requirement deals with fore bearance. In the sixth requirement relation does not mean guidance. In the seventh kindness is a tradition of invocation.

المقدمة

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على إمام الدعاة وسيّد المصلحين محمد، وعلى آله وصحبه أجمعين... أما بعد:

فقد تحدث القرآن الكريم عن بعض الأنبياء والمرسلين، وعرض لنا نماذج من قصصهم وسير حياتهم، ومواقفهم مع أقوامهم، وطريقة دعوتهم لهم، وما جرى بينهم وبين أولئك الأقوام، وما انتهى إليه الأمر من إهلاكِ الله تبارك وتعالى للكافرين، ونصرتهِ للنبيين والمرسلين، ومن تبعهم من المؤمنين.

ومعلومٌ أنَّ حديث الآيات القرآنية عن الأنبياء والرسل ورد في عدد من السور القرآنية، مكية كانت أو مدنية، ولا تكاد تخلو سورة من السور القرآنية الطويلة والمتوسطة من عرض مشهدٍ لقصةِ رسولٍ مع قومه، أو إشارة -ولو سريعة- لما جرى بين نبي وبين قومه(١).

وكان من بين أولئك الأنبياء والمرسلين الذين فصّل القرآن الكريم منهجهم الدعوي، ومواقفهم مع أقوامهم هو سيدنا إبراهيم عليه السلام الذي يلحظ من يقرأ الآيات القرآنية طريقة دعوته لأبيه، وطريقته في دعوة قومه، وطريقته في دعوة الملك الذي عاش في زمنه، وما صاحب كل تلك المواقف من تداعيات متنوعة.

وما يهمني في هذا البحث هو (دعوة إبراهيم عليه السلام لأبيه)، وما اتخذه من أساليب في تلك الدعوة. وقد أحببت التركيز على الأسلوب المهم بين تلك الأساليب وهو (أسلوب الرفق) في دعوة إبراهيم لأبيه الكافر، الذي صار استخدام هذا الأسلوب سُنّة حسنة لكل من أتى بعد إبراهيم عليه السلام من الدعاة والمصلحين.

(١) ينظر: مواقف الأنبياء في القرآن الكريم، للدكتور صلاح الخالدي: ص٥.

أهمية البحث:

تتضح أهمية البحث المتواضع من خلال تركيزه على ثلاثة أمور، تعد غاية في الأهمية:

الأمر الأول: إنَّ البحث جاء لبيانِ معالم أسلوبٍ دعويٍ استخدمه سيّد من سادة الدعاة، وهو أبو الأنبياء والمرسلين (إبراهيم عليه السلام)، ولا شك أنه رائد من روّاد الدعوة إلى الله. بل إنه أحد الرسل الذين سُمّوا بـــ(أولي العزم) نتيجة ما أثبته هؤلاء الأنبياء من جلادة وصبر لما تعرضوا له من أذى أقوامهم في طريقة دعوتهم.

الأمر الثاني: تتأكد أهمية البحث كونه يركز على أسلوب دعوي رائع وهو (أسلوب الرفق) في الدعوة، ولا شك أنَّ هذا الأسلوب يُسهم في جني الثمار الدعوية اليانعة بأيسر الطرق وأسهلِها. وذلك أنَّ القلوب تميل إلى من يلين ويرفق بها(١).

الأمر الثالث: إنَّ استخدام مثل تلك الأساليب وممارستها عملياً من قبل الدعاة الكبار سيُعطي صورة جيدة، ودرساً بليغاً للدعاة الذين سيأتون من بعده ممن يخوضون غمار الدعوة والإصلاح، على أساس أنَّ الأنبياء والمرسلين قدوات صالحة لكل المسلمين. ومؤكدٌ أنَّ الداعية في أمسّ الحاجة إلى التفاف الناس حوله، وإمالة القلوب إليه كي يُسمع ويُستجاب له، وتحلّيه بالرفق واللين مما يساعد في تحقيق ذلك.

منهجية البحث:

أما منهجي في البحث، فإنني قمتُ بالتمعن في الآيات القرآنية التي ركزّت على (أسلوب الرفق) في دعوة إبراهيم عليه السلام لأبيه، والتي تمثلت في آيات سورة مريم، وقد شرعتُ بكتابة سطور البحث من خلال اتباع منهج: موضوعي، ووصفي؛ إذ إنني أتناول أيَّ موضوع فيه لمسة من أسلوب الرفق فأدرسه وأحلله، ثم أذكر ما يمكن استنباطه منه، مما يخدم الدعوة والدعاة.

(١) ينظر: من صفات الداعية اللين والرفق، للدكتور فضل إلهي: ص٥.

وربما اختصرت في بعض الأحيان، خوفاً من الإطالة المفرطة، التي لا داعي لها، وقد يملّها القارئ الكريم. أما عن طريقة العزو وتخريج النصوص، فإنني أعزو إلى كل مصدرٍ نَقلتُ أو استفدتُ منه، ولم أشر إلى كل تفصيلاته؛ لأنَّ ذلك سيأخذ مساحة من البحث، وتثقل الهوامش معه، واكتفيت بذكر اسم الكتاب واسم مؤلفه، وذكرت تفصيلات المصادر والمراجع في آخر البحث لمن أرادَ الاستزادة.

وقد عزوت الآيات القرآنية إلى سورها، وخرّجت الأحاديث النبوية. فأشيرُ في عزو الآية إلى اسم السورة ورقم الآية. وأشيرُ في تخريج الحديث إلى اسم المصدر الذي خرّجه، واسم الكتاب، والباب الذي حواه، ورقم الحديث، وجزء الكتاب وصفحته.

أما في التعريفات اللغوية والاصطلاحية، فإنني رجعت إلى مظان تلك التعريفات المتنوعة، من أمهات المراجع المتخصصة في هذا الشأن.

محتوى البحث:

اشتمل البحث على مبحثين، خصصت **المبحث الأول** للتعريف بمصطلحات البحث، واحتوى على أربعة مطالب، ركزت في **المطلب الأول** على تعريف الأسلوب لغة واصطلاحاً، وفي **المطلب الثاني** على تعريف الرفق لغة واصطلاحاً، وفي **المطلب الثالث** على تعريف الدعوة لغة واصطلاحاً، وأما **المطلب الرابع** فخصصته للتعريف بسيدنا إبراهيم عليه السلام.

أما **المبحث الثاني** فقد تحدثت فيه عن أسلوب الرفق في دعوة سيدنا إبراهيم عليه السلام، واحتوى على تمهيد، ومطلبين، خصصت **المطلب الأول** لبيان معالم الرفق في دعوة إبراهيم عليه السلام وفيه خمسة فروع: **الفرع الأول**: تأدب إبراهيم عليه السلام مع أبيه الكافر، **والفرع الثاني**: الاعتماد على الحجج الملموسة، **والفرع الثالث**: أثـــر العلم في الدعوة إلى الله، **والفرع الرابع**: بيـــان زيف المعبود الباطل، **والفرع الخامس**: إنكار دعوة الإيمان سببٌ للعذاب. وأما **المطلب الثاني** فقد تحدثت فيه عن: المستفاد من دعوة إبراهيم عليه السلام لأبيه للدعوة والدعاة.. واشتمل على سبعة فروع، **الفرع الأول**: الأقارب

أولى بالدعوة من غيرهم، والفرع الثاني: اللطف والرفق لا يعني المداهنة، والفرع الثالث: لا دعـــوة ولا إصـــلاح بلا علم ومعرفة، والفرع الرابع: الإنكار والتهديد سبيل المعاندين، والفرع الخامس: الحلم.. ومقابلة الإساءة بالإحسان، والفرع السادس: القرابة لا تعني الهداية بالضرورة، والفرع السابع: الرفق سنة دعوية متواترة.

وختاماً: فإنني أرجو الله تبارك وتعالى أن يجعل عملي المتواضع هذا خالصاً لوجهه الكريم، وأن يكتب لهذه السطور القبول والرضا، إنه سميع مجيب. وصلى الله وسلم وبارك على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم تسليماً كثيراً.

المبحث الأول
التعريف بمصطلحات البحث

المطلب الأول: تعريف الأسلوب لغة واصطلاحاً

أولاً : تعريف الأساليب لغة:

الأساليب، جمع أسلوب، وهو في اللغة: الطريق. يقال: سلكتُ أسلوبَ فلانَ في كذا: يعني طريقته ومذهبه. وأسلوبُ الكاتبِ: طريقتُه في كتابته. ويقال: أخذ فلان في أساليب القول، أي: أفانين منه(١).

والأسلوب: الطريق يأخذ فيه، وكل طريق ممتد فهو أُسلوب. والأسلوب: الوجه والمذهب. يقال: هم في أسلوب سوء. ويُجمع على أساليب، وقد سلك أسلوبه: طريقته، وكلامه على أساليب حسنة(٢).

ثانياً: تعريف الأساليب اصطلاحاً :

من خلال ما تقدم من معنى لغوي للأساليب، ومن خلال ما اطلعتُ عليه من مضامين تتعلق بهذا الجانب، يمكنُ لي التعبير عن المعنى الاصطلاحي لهذا

(١) ينظر: لسان العرب، لابن منظور: مادة «سلب» ٢٠٥٨/٣.

(٢) ينظر: تاج العروس من جواهر القاموس: ٧١/٣، والمحكم والمحيط الأعظم: مادة «سلب» ٥٠٤/٨.

المصطلح بأن يقال في معنى أسلوب الدعوة: ((بأنها: طريقة الداعي إلى الله في دعوته)). وعلى هذا فإنّ معنى أساليب الدعوة: هي الطرق التي يسلكها الداعي إلى الله في دعوته[١].

وبالمناسبة فإنَّ ثمة فرقٍ بين (الأسلوب الدعوي) وبين (المنهج الدعوي)، وإن كانا يشتركان في المعنى اللغوي وهو (الطريق).

فالمناهج الدعوية: هي النظم المرسومة والخطط الدعوية العامة[٢]. أما الأساليب الدعوية –فهي تعني كما تقدّم–: كيفياتُ وطرقُ تطبيقِ تلك النظم والخطط الدعوية[٣].

وهذه الأساليب قد تكون بيانية (لفظية) وقد تكون سلوكية (معنوية) تأتي ضمن صورة من صور التعامل مع الآخرين أثناء دعوتهم.

وهذا خلافاً لبعض الباحثين[٤] الذين يؤكدون على أن المراد بالأسلوب الدعوي هو: الصور اللغوية والبيانية التي تَرِدُ على ألسنةِ الرسل في دعوتهم من كونها خبراً أو إنشاءً (أمراً أو نهياً أو استفهاماً)، حواراً، أو قصصاً، وما إلى ذلك.

المطلب الثاني: تعريف الرفق لغة واصطلاحاً

أولاً: تعريف الرفق لغة:

الرِّفق: حُسنُ الانقيادِ لما يؤدِّي إلى الجَميلِ. وهو: اللُّطْفُ، وهو ضِدُّ العُنْفِ. والرِّفْقُ: لِينُ الجانِب، ولَطافَةُ الفِعْل. وصاحِبُه رَفِيقٌ، وقد رَفقَ يَرْفُق، رِفقاً، ومَرْفِقاً. ورَفَقَ فُلانٌ فُلاناً: إذا نَفَعَه. وكذلِك: رَفَقَ به[٥].

(١) ينظر: المدخل إلى علم الدعوة: ص٤٧.

(٢) ينظر: مباحث في الدعوة ومناهجها وأساليبها وبعض رجالها، للدكتور عبد الخالق إبراهيم: ص٧٦.

(٣) ينظر: المدخل إلى علم الدعوة: ص٤٧.

(٤) ينظر: الدعوة إلى الله، للدكتور محمد سيدي بن الحبيب: ص٢٧٢.

(٥) ينظر: تاج العروس من جواهر القاموس: ٣٤٦/٢٥، المغرب في ترتيب المعرب: ٣٣٩/١، ومختار الصحاح: ص٢٥٠. مادة «رفق».

ثانياً: تعريف الرفق اصطلاحاً:

هو: لين الجانب بالقول والفعل، والأخذ بالأسهل والأيسر، وحسن الخلق، وكثرة الاحتمال، وعدم الإسراع بالغضب، والتعنيف، والشدة، والخشونة[١].

المطلب الثالث: تعريف الدعوة لغة واصطلاحاً

أولاً: تعريف الدعوة لغة:

الدعوة، مأخوذة من دعا يدعو. يقال دعوتُ فلاناً، وبفلانٍ: ناديته وصِحْتُ به، وما بالدار داعٍ: (مناد) ولا مجيب[٢]. والدعاء: الرغبة إلى الله عز وجل. ودعا الرجل دعواً ودعاءً: ناداه، والاسم الدعوة. ولبني فلانٍ الدعوة على قومهم، أي: يبدأ بهم في الدعاء، وتداعى القوم على بني فلان إذا دعا بعضهم بعضاً، حتى يجتمعوا.

ويُطْلَقُ الدَّاعِي على المُؤَذِّنِ؛ لأنَّه يَدْعُو إلى ما يُقَرِّبُ مِن اللَّهِ. وقد دَعا، فهو داعٍ، والجَمْعُ دُعاةٌ ودَاعُونَ. وقد سمي الداعي إلى الله بذلك؛ لأنه ينادي المدعوين إلى دين الله، ويرغبّهم في الطاعة، ويحثهم على الالتزام.

ثانياً: تعريف الدعوة اصطلاحاً:

هناك تعريفات عديدة للدعوة الإسلامية، وقد أحصيتُ عدداً كبيراً منها، وهي مختلفة في الدلائل والألفاظ[٣]. غير أنني طلباً للاختصار أود الإشارة إلى ثلاثةٍ من تلك التعريفات التي أحصيتها مع مراعاة التنوع:

فمن العلماء القدامى، قال ابن تيمية (رحمه الله تعالى) في تعريفها: ((الدعوة إلى الله: هي الدعوة إلى الإيمان بالله وبما جاءت به رسله، بتصديقهم فيما أخبروا

(١) ينظر: فتح الباري بشرح صحيح البخاري، لابن حجر العسقلاني: ١٠/ ٤٤٩.
(٢) أساس البلاغة: ٢٨٨/١. وينظر: لسان العرب، لابن منظور: ١٣٨٦/١٦، مادة «دعو».
(٣) ورد تعريف الدعوة في عدد من المصادر، منها تعريف الدكتور علي عبد الحليم محمود في كتابه (المرأة المسلمة وفقه الدعوة إلى الله): ص١٦٥، وتعريف الأستاذ البهي الخولي في كتابه (تذكرة الدعاة): ص٢٧، ومن التعريفات أيضاً ما عرّفه الأستاذ الدكتور أحمد عمر هاشم في كتابه (الدعوة الإسلامية، منهجها ومعالمها): ص٦، وكذلك تعريف المستشار علي جريشة في كتابه (على هامش فقه الدعوة): ص١٢- ١٣.

به، وطاعتهم فيما أمروا، وذلك يتضمن الدعوة إلى الشهادتين، وإقام الصلاة، وإيتاء الزكاة، وصوم رمضان، وحج البيت، والدعوة إلى الإيمان بالله، وملائكته، وكتبه، ورسله، والبعث بعد الموت، والإيمان بالقدر خيره وشره، والدعوة إلى أن يعبد العبد ربه كأنه يراه))[١].

ومن المحدثين قال الشيخ علي محفوظ في تعريف الدعوة: ((حثُّ الناس على الخير والهدى، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر؛ ليفوزوا بسعادة العاجل والآجل))[٢].

ويقول الأستاذ الدكتور أحمد غلّوش في تعريف الدعوة الإسلامية: ((هي العلم الذي تُعرفُ به المحاولات الفنية الهادفة إلى تبليغ الناس الإسلام، بما حوى من عقيدة وشريعة وأخلاق))[٣].

التعريف المناسب:

لعلَّ أنسب تعريف للدعوة أن يقال في تعريفها: ((هي عرض الداعية معاني الإسلام على الناس، بدراية تامة، في أسلوب يناسب حال المدعوين))[٤].

وفي هذا التعريف تركيز على الأركان الأربعة للدعوة الإسلامية، فالتعريف يؤكد على ضرورة توافر (موضوع الدعوة)، وهو هنا الإسلام، وهذا الركن الأول. ويؤكد التعريف أيضاً على ضرورة وجود (الداعي) الذي يقوم بواجب التبليغ، وهو الركن الثاني. ويؤكد أيضاً على الركن الثالث وهم (المدعوون): وهم الناس الذين يتلقون الدعوة، وطبعاً لا تتحقق إلا بتوافر الركن الرابع وهو (الأساليب والوسائل الدعوية). كما أشار إلى ذلك التعريف. والله أعلم.

(١) الفتاوى الكبرى، لشيخ الإسلام تقي الدين أحمد بن تيمية الحراني: ٥٧/٦.

(٢) هداية المرشدين إلى طرق الوعظ والخطابة، للأستاذ الشيخ علي محفوظ: ص١٧.

(٣) الدعوة الإسلامية، أصولها ووسائلها، للدكتور أحمد غلوش: ص١٠.

(٤) ينظر: الدعوة إلى الله على ضوء الكتاب والسنة: ص٥٩-٦٠.

المطلب الرابع: التعريف بسيدنا إبراهيم عليه السلام

هو سيدنا خليلُ الرحمنِ: إبراهيم بن تارخ بن ناخور بن ساروغ بن أرغو بن فالغ بن غابر بن شالخ بن قينان بن أرفخشذ بن سام بن نوح عليه السلام.

هذا ما رواه في نسبه كبارُ المؤرخين أمثال: الطبري(١) وابن كثير(٢) وابن الأثير(٣) وهو كذلك ما اعتمده أهل السير، وجميعهم يسمون أباه (تارخ)، ويسلسلون نسبه عليه السلام على هذا النحو، مع اختلافٍ بينهم في إعجام الحروف وإهمالها.

ونقرأُ في القرآن الكريم أنه سمّى أبا إبراهيم (آزر) كما قال تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَٰهِيمُ لِأَبِيهِ ءَازَرَ أَتَتَّخِذُ أَصْنَامًا ءَالِهَةً ...﴾(٤)، وهو يخالف ما ذكره جمعٌ من المؤرخين وأهل السير، ولذلك احتدم الخلاف بين المؤرخين الذين يعتمدون على الروايات، وبين المفسرين الذين يعتمدون على النص القرآني الكريم.

وأرى أنَّ هذا الخلاف لا طائل تحته؛ لأنه خلاف صوري وليس جوهرياً، ولا يترتب عليه أيّ أثر في المدلولات الدعوية لسيدنا إبراهيم عليه السلام، ولا يؤثر على المنهج الدعوي ولا الموضوع النبوي لسيدنا إبراهيم عليه السلام. على أننا نجد إطلاق لفظة (الأب) على غير الأب الحقيقي، كما في قوله تعالى: ﴿أَمْ كُنتُمْ شُهَدَآءَ إِذْ حَضَرَ يَعْقُوبَ ٱلْمَوْتُ إِذْ قَالَ لِبَنِيهِ مَا تَعْبُدُونَ مِنۢ بَعْدِى قَالُوا۟ نَعْبُدُ إِلَٰهَكَ وَإِلَٰهَ ءَابَآئِكَ إِبْرَٰهِـۧمَ وَإِسْمَٰعِيلَ وَإِسْحَٰقَ إِلَٰهًا وَٰحِدًا وَنَحْنُ لَهُۥ مُسْلِمُونَ﴾(٥). فقد ذكرت الآية أنَّ إسماعيل عليه السلام من آباء يعقوب عليه السلام، وهو في الحقيقة ليس أباه، وإنما هو عمه(٦). ويؤكد الإمام ابن كثير (رحمه الله) على أنَّ (آزر) هو: اسم صنم، وقال: كأنه غلب اسم آزر على أبي

(١) تاريخ الرسل والملوك: ٢٣٣/١.
(٢) البداية والنهاية: ٣٢٤/١.
(٣) الكامل في التاريخ: ٢٥٨/١.
(٤) سورة الأنعام، الآية ٧٤.
(٥) سورة البقرة، الآية ١٣٣.
(٦) ينظر: نظرات في أحسن القصص، للدكتور محمد السيد الوكيل: ص١٤٤.

إبراهيم لشدة خدمته لذلك الصنم[١]. وأما الإمام الطبري فإنه يرى أنَّ الرجل قد يكون له اسمان، كما الكثير من الناس، أو يكون أحدهما لقباً والآخر اسماً[٢].

ومن العلماء من يرى أنَّ اسم أبي إبراهيم هو (آزر) كما صرّح الله بذلك في الآيات القرآنية، وأنه لا داعي للقول بغير ذلك تبعاً لما عند أهل الكتاب والمؤرخين، ومعلومٌ أنَّ التاريخ ينقل الثابت وغير الثابت. وهو رأي وجيهٌ[٣]. والله أعلم.

وعروبة إبراهيم عليه السلام هي النسبة الأصح التي ينتسب إليها[٤]. ويلقّب بـــ(شيخ الأنبياء) و(أبي الأنبياء)؛ لأنه كان رائد الدعوة النبوية في العالم الإنساني بأسره، ومنه تناسل الأنبياء وتتابعوا[٥].

مولده :

من حيث الزمان: في تحديده خلاف بين العلماء، غير أنَّ من المؤكد أنه عاش في الفترة الواقعة بين عامي ٢٠٠٠ و١٧٠٠ قبل الميلاد[٦].

وأما من حيث المكان، فالمشهور من أقوال العلماء أنه ولد بالعراق، واختلفوا في تحديد الأرض، فقيل: بأرض الكلدانيين ببابل[٧].

ويذهب بعضهم إلى أنه ولد بحاران، التي تعدُّ من إقليم العراق الأعلى في منطقة الجزيرة، بين نهري دجلة والفرات، وليست هي أور البابلية المشهورة في جنوب العراق[٨].

(١) تفسير ابن كثير: ٢٥٨/٣.
(٢) ينظر: تفسير الطبري: ٢٤٤/٧.
(٣) ينظر: الدعوة إلى الله: ص٤١١.
(٤) ينظر: فقه دعوة الأنبياء في القرآن الكريم، للدكتور أحمد البراء الأميري: ص١٦٦.
(٥) ينظر: إبراهيم أبو الأنبياء، للعقّاد: ص٣١٤.
(٦) ينظر: دراسات تاريخية في القرآن الكريم، للدكتور محمد بيومي: ص١٢٣-١٢٧.
(٧) ينظر: نظرات في أحسن القصص: ص١٤٦.
(٨) ينظر: فقه دعوة الأنبياء في القرآن الكريم: ص١٦٩.

وفاته:

ذكر الطبري[١] والمسعودي[٢] وابن الجوزي[٣] أنَّ إبراهيم عليه السلام توفي بالشام عن عمرٍ بلغ مائتي سنة، وقيل: مائة وخمس وسبعين سنة.

وقد دفن (عليه السلام) عند قبر زوجته سارة ببلدةٍ تسمى (مزرعة حبرون) المعروفة اليوم بـــ(الخليل) في دولة فلسطين[٤]، وهذا الخبر كما يقول الإمام ابن كثير متلقّى بالتواتر[٥].

المبحث الثاني

أسلوب الرفق في دعوة سيدنا إبراهيم عليه السلام

تمهيد:

أولاً: في بيان أهمية الأساليب الدعوية

أود الإشارة -بداية- إلى أنَّ الداعي إلى الله إذا كان في حاجة إلى فكرةٍ دعويةٍ يدعو الناس إليها، وإذا كانت الدعوة في حاجة إلى داعية يحملها ويبلغها للمدعوين. فالداعية في حاجة أيضاً إلى الأسلوب الذي يُقدّم من خلاله دعوته إلى الناس؛ إذ الأسلوب هو المفتاح الذي يفتح به الدعاة إلى الله تبارك وتعالى مغاليق القلوب والعقول. وبغير ذلك سيكون الداعي إلى الله عاجزاً عن حمل الدعوة، حتى وإن كانت ناصية الملكة العلمية والثقافية والفكرية بأيديهم؛ لأنَّ العلمَ والمعرفةَ والفكرَ والثقافةَ من صفات الداعية، وهي جزء من أجزاء تكمّلُ كلها شخصيةَ الداعية، ولا يمكن أن يستغني أحدهما عن الآخر، فإن توفر لدى الداعية واحدة منها فهي واحدة،

(١) ينظر: تاريخ الطبري: ٣١٢/١.
(٢) ينظر: مروج الذهب ومعادن الجوهر: ٤٦/١.
(٣) ينظر: المنتظم في تاريخ الملوك والأمم: ٣٠٣/١.
(٤) ينظر: معجم البلدان: ٢١٢/٢.
(٥) ينظر: قصص الأنبياء: ٢٥٢/١.

أو اثنتان فهما اثنتان، حتى إذا توفرت جميعها لديه اكتملت شخصية الداعية فيه، وأصبح قادراً على مخاطبة الناس وتجميعهم حول الدعوة.

لكنَّ هذه الأوصاف غيرُ كافية للداعية على إبلاغ الدعوة، إلا إذا امتلك الأسلوب، وكما أنَّ للداعية وللدعوة صفات لا يكونان إلا بها، فإنَّ الأسلوب لا يستطيع عرض الدعوة على الناس إلا بعناصر تجعل الدعوة واضحة ومرغوباً فيها[1]. ومن تلك العناصر (الرفق) و(التدرج) و(إلزام الخصم بالحجة)، وغير ذلك. وكل هذه المعاني تؤكد أهمية الأساليب الدعوية على اختلاف أشكالها وصورها.

ثانياً: الأساليب الدعوية لإبراهيم عليه السلام

إذا كان الأنبياء هم سادة الدعاة إلى دين الله تبارك وتعالى باعتبارهم النماذج المختارة والمصطفاة من رب الأرباب جل جلاله، وأنهم مارسوا الدعوة ممارسة عملية مع أقوامٍ مختلفين، وأزمنةٍ متنوعة، وأنهم معصومون ومحفوظون ومحفوفون بتوفيق الله تعالى وتأييده؛ فإنَّ من المهم جداً التركيز على الأساليب التي كان يستخدمها هؤلاء الأنبياء (عليهم الصلاة والسلام)، لاسيّما أبو الأنبياء وشيخ المرسلين (سيدنا إبراهيم الخليل عليه السلام)، الذي سنركز على ما احتوى جهده الدعوي من أسلوب الرفق واللطافة في الدعوة، لعله يكون نبراساً يُحتذى به في مسيرة الدعوة ممن يأتي بعده من الدعاة إلى دين الله.

والجميل في (أسلوب الرفق) الذي استخدمه إبراهيم عليه السلام أنه استخدمه مع أبيه، الذي أراد له الهداية من زيف الكفر والضلال، وهذا الأسلوب قصّه القرآن الكريم في بعض الآيات القرآنية، التي ستكون إطاراً لهذا البحث المتواضع، الذي نقدّمه للقارئ الكريم؛ لغرض الإفادة منه في المسيرة الدعوية لكل الدعاة الذين آلوا على أنفسهم القيام بهذا الواجب النبيل.

(١) ينظر: ركائز الدعوة في القرآن، للأستاذ محمد إبراهيم شقرة: ص٣١.

وإذا كنت سأركز فيما سيأتي من الصفحات على أسلوب الرفق في دعوة إبراهيم عليه السلام لأبيه، فإنه لا بأس من توضيح الأساليب الدعوية -على اختلافها وكثرتها- بشكل عام لغرض الإفادة منها، حيث تمثلت دعوته عليه السلام في أسلوبين رئيسين، تتفرع عنهما جملة من الصور المتنوعة:

الأسلوب الأول:

الأسلوب النظري، القائم على الأخبار بانَّ الله تعالى موجود، وهو خالق هذا الكون كله، أرضه وسماؤه، بحاره وأشجاره... إلخ.

وهذا الأسلوب القائم على توحيد الله وإفراده بالألوهية والربوبية اشترك فيه جميع الأنبياء والمرسلين، وقد استخدمه سيدنا إبراهيم عليه السلام مع أبيه، ومع قومه الذين عبدوا الأصنام، وكذلك الذين يعبدون الكواكب، واستخدمه كذلك مع الملك الكافر [النمرود].

مع اختلاف في طريقة الأساليب المختارة في دعوة هذه الأصناف المذكورة، ففي الوقت الذي نجد فيه إبراهيم عليه السلام قد استخدم أسلوب الرفق مع أبيه، وجدناه يستخدم أسلوب الشدة وتغيير المنكر باليد مع قومه من عبدةِ الأصنام، فضلاً عن استخدام أسلوب المحاججة وإلزام الخصم مع الملك الكافر (النمرود). وهكذا

الأسلوب الثاني:

الأسلوب العملي (التجريبي السلوكي)؛ إذ لم يقتصر سيدنا إبراهيم عليه السلام في دعوته على الأسلوب النظري فقط، بل دعا إلى الله سبحانه وتعالى بلسانه، وبدنه، وبسلوكه، وعمله، وضحّى بنفسه وولده ووطنه، وانقاد لأمر الله تبارك وتعالى، وفوض أمره إليه، وتوجه إليه، وتوكّل عليه في كلِ موطن يريد أعداؤه أن يمكروا به[1].

(١) ينظر: الدعوة إلى الله، للدكتور محمد سيدي بن الحبيب: ص٤٥٦.

وفي إطار الأسلوب الثاني نجد أنَّ الرفق كان خلقاً وصفة متجسدة في الجانب السلوكي لسيدنا إبراهيم عليه السلام فهو خلق عملي وسلوكي.

المطلب الأول: معالم الرفق في دعوة إبراهيم عليه السلام

يعد الرّفق واللّين من أعظم الأخلاق، التي تنبع من رحمة الإنسان. ولأهمية هذا الخلق، فقد أُمر به المسلم عموماً، ويتأكدُ هذا الأمر بحق الدعاة إلى الله تبارك وتعالى؛ لأنهم يخالطون المدعوين، وغايتهم الأساسية ومهمتهم الرئيسة هي هداية أولئك المدعوين بأقرب الطرق وأيسرها. وقد أثبتت التجارب أنَّ الأسلوب الدعوي كلما كان متحلياً بالرفق واللطف واللين كلما أثمر وأنتج، وبالمقابل فإنه كلما اتصف الأسلوب بالخشونة والعنف فإنه يكون –للأسف– مدعاة للتنفير من الدعوة والالتزام بمناهجها.

ولا أريد أن أتحدث عن معالم وصور رفق النبي ﷺ بالمدعوين؛ لأنَّ ذلك سيخرجنا عن موضوعنا، ولكنني أريد أن أؤكد –قبل بيان مواطن الرفق في دعوة سيدنا إبراهيم عليه السلام– على أنَّ الدعاة مأمورون بالرفق حتى مع من يتعدى حقوق الله تعالى، بسبب جهله بالأحكام الشرعية. وهذا من الحكم الدعوية الرائعة؛ لأنَّ خلق الرفق يعود بالنفع على الدعوة، وهو خلق مثمر، وغالباً ما يكون سبباً في هداية المرفق به.

فالرفق سببٌ لكل خير، يحصلُ به من الأغراض، ويسهل من المطالب والثواب، ما لا يحصل بغيره، وما لا يأتي من ضده(١).

ولذلك صار من مقاصد الدعوة للإسلام هي بيان معاني الوحدة والأخوة، والتحذير قائمٌ من كل ما من شأنه إحداث الفرقة والعداوة بين الداعي والمدعو، كالتخاطب بالكلام الخشن المؤذي، الذي قد يؤدي إلى الخصومة والعداوة، والدعاة مأمورون بدلاً عن ذلك بالتخاطب بالكلام الحسن، والكلمة الطيبة. ولا يكتفي الإسلام

(١) ينظر: شرح النووي على صحيح مسلم: ١٤٥/١٦.

بذلك، بل يأمر بالدفع بالتي هي أحسن عند حدوث ما قد يؤدي إلى الفرقة، فيأمر بالعفو عن المسيء والصفح عنه، ومقابلة إساءته بالإحسان إليه.

ولهذا خصَّ الله تعالى بالذكر مداراة المسلم إذا أساء، ومقابلته بالعفو والصفح، بل وبالإحسان إليه، حتى يقلع عن إساءته وعداوته، ويرجع إلى المودّة والأخوة الإسلامية، وفي هذا التشريع الإسلامي والالتزام به، تفويت لأغراض الشيطان الخبيثة، وإفشال لسعيه في إحداث الفرقة والعداوة بين المسلمين، ووقاية له من مكائده(١).

ولعلَّ من مناهج الرفق واللطف والعطف، أن يسلك الدعاة سبل التودد مع المدعوين، بما يعين على نشر الدعوة الإسلامية، ويجوز للداعي أن يخاطب المدعوين بما يذّكرهم -مثلاً- بطيب أصلهم، وحسن سيرة آبائهم وأجدادهم، وجهادهم في خدمة الإسلام، وأنهم أهل لأن يكونوا مثل آبائهم وأجدادهم جهاداً في سبيل الله، وخدمة لدينه، على أن يكون مدح الداعي لآباء المدعوين بحدود ما يعلمه عنهم، وبدون إسراف في المدح والثناء(٢). كل ذلك من أجل ترقيق القلوب، وتليين الأفئدة، وتفتيح العقول؛ من أجل القبول بالدعوة إلى المعاني الحقيقية للإيمان.

❁❁❁

وإذا تبين هذا؛ فإنَّ الفرصة سانحة هنا للبداية بتوضيح معالم الرفق في دعوة سيدنا إبراهيم عليه السلام من خلال النصوص القرآنية، التي تتجلى في دعوته لأبيه(٣) عندما خاطبه بدعوته الصادقة فقال له: ﴿وَٱذۡكُرۡ فِي ٱلۡكِتَٰبِ إِبۡرَٰهِيمَۚ إِنَّهُۥ كَانَ صِدِّيقٗا نَّبِيًّا ٤١ إِذۡ قَالَ

(١) المستفاد من قصص القرآن للدعوة والدعاة، للدكتور عبد الكريم زيدان: ص٥٧.

(٢) المصدر نفسه: ص١٠٦.

(٣) وردت دعوة إبراهيم عليه السلام لأبيه في ثلاثة مواطن في القرآن الكريم: الأول: في سورة الأنعام (الآيات ٧٤ وما بعدها). والموطن الثاني: في سورة مريم (الآيات ٤١ وما بعدها). والثالث: في سورة الشعراء (الآيات ٦٩ وما بعدها). غير أنَّ (أسلوب الرفق الدعوي) لا يتجلى إلا في آيات سورة مريم، التي سنركّز القول فيها -إن شاء الله تعالى-.

لِأَبِيهِ يَٰٓأَبَتِ لِمَ تَعۡبُدُ مَا لَا يَسۡمَعُ وَلَا يُبۡصِرُ وَلَا يُغۡنِي عَنكَ شَيۡـٔٗا ﴿٤٢﴾ يَٰٓأَبَتِ إِنِّي قَدۡ جَآءَنِي مِنَ ٱلۡعِلۡمِ مَا لَمۡ يَأۡتِكَ فَٱتَّبِعۡنِيٓ أَهۡدِكَ صِرَٰطٗا سَوِيّٗا ﴿٤٣﴾ يَٰٓأَبَتِ لَا تَعۡبُدِ ٱلشَّيۡطَٰنَۖ إِنَّ ٱلشَّيۡطَٰنَ كَانَ لِلرَّحۡمَٰنِ عَصِيّٗا ﴿٤٤﴾ يَٰٓأَبَتِ إِنِّيٓ أَخَافُ أَن يَمَسَّكَ عَذَابٞ مِّنَ ٱلرَّحۡمَٰنِ فَتَكُونَ لِلشَّيۡطَٰنِ وَلِيّٗا ﴿٤٥﴾ قَالَ أَرَاغِبٌ أَنتَ عَنۡ ءَالِهَتِي يَٰٓإِبۡرَٰهِيمُۖ لَئِن لَّمۡ تَنتَهِ لَأَرۡجُمَنَّكَۖ وَٱهۡجُرۡنِي مَلِيّٗا ﴿٤٦﴾ قَالَ سَلَٰمٌ عَلَيۡكَۖ سَأَسۡتَغۡفِرُ لَكَ رَبِّيٓۖ إِنَّهُۥ كَانَ بِي حَفِيّٗا ﴿٤٧﴾﴾[1].

ودلائل هذا النص القرآني كثيرة جداً، يقف في مقدمتها ما نريد التركيز عليه من رفق سيدنا إبراهيم عليه السلام ويتضح ذلك من خلال الآتي:

الفرع الأول

تأدب إبراهيم عليه السلام مع أبيه الكافر

يتضح من خلال النص القرآني المتقدم تأدب إبراهيم عليه السلام مع أبيه (الكافر)، فقد كان عليه السلام متمسكاً بالأدب الرفيع، والكلام الطيب الرقيق، فهو يدعو بهذه الأخلاق أباه إلى التوحيد، ونبذ عبادة ما سوى الباري جل جلاله، وهكذا قام إبراهيم عليه السلام بواجب البر نحو والده، وبواجب الصدق مع دعوته، فأمره بعبادة الله وحده، مع بيان ضلال ما هو عليه، وضرره عليه.

وهكذا يجب أن يفعل الدعاة إلى الله إذا ابتلاهم الله بآباء أو أمهات أو أبناء أو أقارب غير مسلمين، عليهم أن يراعوا حقهم عليهم من جهة مخاطبتهم بالرفق واللطف والحسنى، مع اقترانه بالصراحة والوضوح لما يدعونهم إليه[2].

إنَّ الذي يتأمل في الآيات القرآنية جيداً يجد إثارة الحنان الأبوي واضحة أمامه، ففي قوله ﴿يَٰٓأَبَتِ﴾ لهجةٌ رائعةٌ تتجلى فيها أبهى معاني الرقة، وفيها البر، وفيها التواضع، وهذا يرجع إلى الذوق السليم الذي كان يتحلى به سيدنا إبراهيم عليه السلام ويجب على كل الدعاة من بعده أن يتحلوا به أيضاً؛ حتى تكون دعوتهم دعوة مجابة ومثمرة.

(١) سورة مريم، الآيات ٤١- ٤٧.

(٢) ينظر: المستفاد من قصص القرآن للدعوة والدعاة: ص١٤٢.

إنَّ ﴿يَٰٓأَبَتِ﴾ عبارة تذكّر بالصلة القوية التي تربط بين إبراهيم عليه السلام وبين أبيه، وهي رابطة الأبوّة والبنوّة، وما يكون عادة بين الولد والوالد من محبةِ احدهما للآخر، وحرصه على مصلحته، وتضحيته من أجله، حتى وجدناه يكررها هذا النداء الرقيق لأبيه في صدر كل جملة يخاطبه بها؛ من أجل استمالة قلبه، وترقيق فؤاده(١).

لقد خاطب إبراهيم عليه السلام أباه بهذه الصورة الرقيقة والجميلة والمتميزة بالعطف، مع أنه كان بوسعه أن يصيح قائلاً : يا سيدي. أو أن يقول له: يا شيخ الكهان؛ لأنه كان كاهناً، أو أن يقول صفة أخرى. ولكنه تعمّد هذه الكلمة ﴿يَٰٓأَبَتِ﴾ ليصل بها إلى أعماق قلبه، ويثير فيه العطف والحنان. فإنَّ الولد مهما بلغ غضب والده عليه، فإنَّ ذلك الغضب الشديد سرعان من يذوب أمام كلمة تتجسد فيها معاني الرقة، ولذلك وجدنا إبراهيم عليه السلام ذكياً حينما امتصّ غضب والده مسبقاً حينما ناداه ﴿يَٰٓأَبَتِ﴾. وهو يريد بذلك أن يرقق قلبه، ويفتح ذهنه، ويهيئ سماعه لأمرٍ عظيم.

ومن هنا فإنَّ على الداعي إلى الله أن يتلطف في مخاطبة من يدعوهم، من خلال استعمال الألفاظ الرقيقة التي تساعد على إقبال المدعو على الداعي وإصغائه لما يقول، كأن يقول لأبيه: (يا أبتِ) كما فعل إبراهيم عليه السلام، أو يقول لابنه: (يا بنيّ)، أو يقول لأخيه: (يا أخي)، أو يناديه بكنيته، كأن يقول له (يا أبا فلان)، وإذا كان يخاطب جمعاً من الناس فمن المستحسن أن يقول لهم (يا قومِ)، أو يقول لهم (يا أبناء عشيرتي) أو (يا أبناء محلتي)، مما يشعرهم بأنه (أي الداعي) واحد منهم، وليس بعيداً عنهم(٢).

إنَّ سيدنا إبراهيم عليه السلام أثار في والده الحنان قبل أن يثير فيه الإيمان. والحنانُ يسبقُ الإيمان في كثير من الأحيان، فقد يكون الوالد حنوناً ولا يكون مؤمناً. وهذا الحنان عامل مؤثر ومهم، وهو الذي يستطيع الإنسان أن يعتمد عليه.

(١) ينظر: مع الأنبياء في القرآن الكريم، عفيف عبد الفتاح طبّارة: ص١٠٩-١١٠.

(٢) المستفاد من قصص القرآن للدعوة والدعاة، للدكتور عبد الكريم زيدان: ص١٠٦.

ولذلك لا ينبغي للداعي الحكيم أن يتجاهل أو يتغافل هذا الجانب، فإنَّ تجاهله يعدّ إساءة إلى نفسه–باعتباره داعية، ويجب أن يكون حكيماً– وهو إساءة في الوقت ذاته إلى الدعوة؛ لأنَّ البديل سيكون عندئذ هي الغلظة والشدة، التي تنفّر ولا تبشّر، قال تعالى: ﴿وَلَوْ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ ٱلْقَلْبِ لَٱنفَضُّواْ مِنْ حَوْلِكَ...﴾(١).

ولذلك وجدنا شخصية إبراهيم عليه السلام واضحة المعالم، تجسدت فيها كل معاني الداعية الحليم، وبدت من خلال مواقفه وداعته وحلمه، في ألفاظه وتعبيراته، وفي تصرفاته ومواجهته للجهالة التي تعرّض لها من قِبَل أبيه(٢).

الفرع الثاني
الاعتماد على الحجج الملموسة

من خلال التمعن في النص القرآني المذكور آنفاً نجدُ أنَّ سيدنا إبراهيم عليه السلام كان موفقاً في اختيار الألفاظ الدعوية التي تبين المراد الدعوي الذي كان يرغب بوصوله إلى أبيه. فإنه عليه السلام اختار من الدلائل ما يناسب في إثبات كون هذه الآلهة لا تستحق العبادة، فقد اختار الأشياء المحسوسة والمشاهدة بشكل يومي، فلم يبدأ بالأشياء التي تعتمد على المنطق، أو تعتمد على الذكاء النادر، أو تعتمد على البحث العلمي أو الفلسفي، بل اختار الشيء الذي يفهمه الطفل؛ لأنَّ والده كان في مرحلة الطفولة العقلية، مع تقدمه في السن. فخاطبه كما يخاطب الطفل ﴿لِأَبِيهِ يَٰٓأَبَتِ لِمَ تَعْبُدُ مَا لَا يَسْمَعُ وَلَا يُبْصِرُ وَلَا يُغْنِى عَنكَ شَيْـًٔا﴾(٣).

يقول الإمام أبو السعود (رحمه الله تعالى): ((لقد سلك عليه السلام في دعوته أحسنَ منهاجٍ، وأقوم سبيل، واحتج عليه أبدع احتجاج، بحسن أدبٍ، وخلقٍ جميل؛ لئلا يركبَ متنَ المكابرة والعناد، ولا يُنكّبَ بالكلية عن مَحَجّة الرشاد، حيث طَلَب منه علةَ عبادتِه لِما يستخفّ به عقلُ كل عاقل من عالم وجاهل، ويأبى الركون إليه،

(١) سورة آل عمران، الآية ١٥٩.
(٢) ينظر: في ظلال القرآن، سيد قطب: ٢٣١١/٤.
(٣) ينظر: في رحاب الدعوة، لأبي الحسن الندوي: ص٣٧.

فضلاً عن عبادته التي هي الغاية القاصية من التعظيم، مع أنها لا تحِقُّ إلا لمن له الاستغناءُ التامُّ، والإنعامُ العام...))[١].

الفرع الثالث
أثــر العلم في الدعوة إلى الله

انتقل إبراهيم عليه السلام بعد ذلك إلى أسلوب آخر من أساليب الرفق، والحقيقة أنه محطّ افتخار كل أبٍ بابنه، فقال له متلطفاً ومترفقاً: ﴿يَٰٓأَبَتِ إِنِّي قَدۡ جَآءَنِي مِنَ ٱلۡعِلۡمِ مَا لَمۡ يَأۡتِكَ فَٱتَّبِعۡنِيٓ أَهۡدِكَ صِرَٰطًا سَوِيّٗا﴾، وهذا الأسلوب الدعوي الإبراهيمي غاية في الروعة والذكاء، وهو من دواعي سرور الوالد العاقل بولده، الذي ينبغي أن يفتخر ويستبشر بتفوق ولده في العلم والمعرفة والعقل والوعي ﴿إِنِّي قَدۡ جَآءَنِي مِنَ ٱلۡعِلۡمِ﴾، وهو أمر طبيعي؛ فإنَّ الولد قد يختصه الله بالعلم ولا يختص بذلك والده، فيكون الولد أعلمَ وأوعى، وأفهمَ وأدرى. وهذا ما حصل مع إبراهيم عليه السلام. فهو بحكمته الدعوية قد استثمر تلك الصفة المشرقة في حياته لتكون عامل هداية لأبيه الذي شاء الله تبارك وتعالى أن يكون كافراً وغير مهتدٍ. ولذلك فإنَّ على الدعاة أن يتخذوا من ذلك الموقف درساً ونموذجاً يهتدون به في مسيرتهم الدعوية حتى يحققوا النتائج المرجوة منهم.

والملاحظ هنا أنَّ إبراهيم لم يصف أباه بالجهل المفرط، ولم يصف نفسه بالعلم الفائق، ولكنه قال: إنَّ معي طائفة من العلم، وشيئاً من ذلك العلم الممنوح لي ليس معك، وذلك علم الدلالة على الحق والطريق السوي، فلا تستنكف (يا أبتِ) من قبول قولي ونصحي لك، وهب أنا وأنت في مسيرٍ وعندي معرفة بالطريق، فمصلحتك تقتضي أن تتبعني لتنجو من التيه والضلال!![٢]

(١) تفسير أبي السعود، المسمى (إرشاد العقل السليم إلى مزايا الكتاب الكريم): ٢٦٧/٥.
(٢) تفسير الكشاف، للزمخشري: ١٩/٣.

وهنا درسٌ بليغ للدعاة إلى الله وهو: أنَّ العلم والمعرفة أساسان متينان لنجاح الدعوة، والتأثير في المدعوين، وكلما كان الداعية ملمّاً بالعلوم كان أقرب في الوصول إلى ميادين التوفيق والنجاح. فالعلم أو الثقافة -إذن- هي العدّة الفكرية للداعية، بجوار العدّة الروحية والأخلاقية، والدعوة عطاء وإنفاق، ومن لم يكن عنده علم ولا ثقافة، كيف سيعطي غيره، فإنَّ فاقدَ الشيء لا يعطيه!![١]

الفرع الرابع
بيـان زيف المعبود الباطل

انتقل إبراهيم عليه السلام مع أبيه إلى محطة أخرى من محطات الرفق الدعوي، ليوضح ويبين هذه المرة صفة المعبود الباطل الذي يعبده أبوه، وهنا نجده واضحاً معه غاية الوضوح في بيان تلك الحقيقة ﴿يَٰٓأَبَتِ لَا تَعۡبُدِ ٱلشَّيۡطَٰنَۖ إِنَّ ٱلشَّيۡطَٰنَ كَانَ لِلرَّحۡمَٰنِ عَصِيّٗا﴾، وهي عبارة لا يلتوي فهمها على هذا الرجل (الأب) الساذج البسيط، الذي بلغ من تخلّفه العقلي أنه كان ينحت الأصنام ثم يعبدها، فبين له أنَّ أعظم الصفات السلبية عند إبليس أنه كان للرحمن عصياً[٢].

إنَّ سيدنا إبراهيم عليه السلام كان يعلم يقيناً أنَّ القلب هو وعاء العاطفة، وكلما ازدادت العاطفة نشاطاً زاد القلب بذلك، وكلما خمل وكسل، خملَ القلب وكسل وفتر، وإلى أي شيء تميل العاطفة يميل القلب معها ويتبعها. ولذلك فإنَّ الدعاة المخلصين هم الذين يستطيعون الوصول بدعوتهم إلى قلوب المدعوين، يقرعون أبوابها بالحق الذي جاءوا به، ويفتحون مغاليقها بالهدى الذي يدعون إليه، ويدلون عليه.

والقلب البشري إنما سمي قلباً لكثرة تقلّبه وتحوّله[٣]، فهو مصدر الحب والبغض، وهو محل الإيمان والكفر، وهو سر النشاط والخمول، وبه يكون الإقبال

(١) ينظر: ثقافة الداعية، للدكتور يوسف القرضاوي: ص٥.

(٢) ينظر: في رحاب الدعوة، للعلامة أبي الحسن الندوي: ص٣٧- ٣٨.

(٣) قال الراغب الأصفهاني في (المفردات في غريب القرآن: ص٦٨١): ((قَلْبُ الشيء: تصريفه وصرفه عن وجه إلى وجه... وقَلْبُ الإنسان قيل: سمّي به لكثرة تَقَلُّبِهِ)).

والإدبار، ومنه يكون الإقدام والإحجام. فالداعية -إذن- في حاجة إلى تحريك القلوب نحو الخير والإيمان، وفي حاجة كذلك إلى تنفيرها من الكفر والفسوق والعصيان. والحقيقة المؤكدة أنَّ توجيه القلوب نحو الخير يحتاج إلى خبرة بتلك القلوب التي يراد تحريكها، ويفتقر إلى معرفة الدوافع التي جلبت القلوب على التأثر بها.

وليس هناك مفاتيح أقرب إلى تحريك القلوب، واستمالتها، وفتح أقفالها، وإزالة الدَرَن عنها من إثارة العواطف الكامنة في حناياها. ومن ثم فإنَّ التجارب الواقعية تؤكد أنَّ ((الرفق واللطف والحنان والعطف)) هو أفضل وأقوى تلك العواطف(١).

الفرع الخامس
إنكار دعوة الإيمان سببٌ للعذاب

تابع خليل الرحمن عليه السلام نصحه لأبيه بكل عطف ورفق، وقدّم له نصيحته الرابعة، التي صارت نموذجاً رائعاً لأفضل ما يمكن أن يقدّمه الولد لأبيه من أجل إنقاذه من تيه الجهل والضلالة، إلى عالم السعادة والهداية.

وكانت النصيحة قائمة هذه المرة على مبدأ التخويف من سوء عاقبة الكفر والتكذيب، وما يمكن أن يجره ما هو فيه من التبعة والوبال. حيث لم يخل هذا الموقف من مواقف العطف والرفق والحنان، ولم يخل من حسن أدب سيدنا إبراهيم عليه السلام مع أبيه، حيث لم يصرح بأنَّ العقاب لاحقٌ له، وأنَّ العذاب لاصقٌ به، ولكنه قال: ﴿أَخَافُ أَن يَمَسَّكَ عَذَابٌ﴾، فذكَرَ الخوف والمسّ، ونكّرَ العذاب، وجعل ولاية الشيطان ودخوله في جملة أشياعه وأوليائه أكبر من العذاب، وذلك أنَّ رضوان الله أكبر من الثواب نفسه(٢).

﴿ يَٰٓأَبَتِ إِنِّيٓ أَخَافُ أَن يَمَسَّكَ عَذَابٌ مِّنَ ٱلرَّحۡمَٰنِ فَتَكُونَ لِلشَّيۡطَٰنِ وَلِيّٗا ﴾، وهذا تحذير من سوء عاقبة ما هو فيه من عبادة الأصنام. والخوف هُنَا بمعنى: العلم، وَمَعْنَاهُ: إِنِّي أعلم أَنه ﴿يَمَسَّكَ عَذَابٌ مِّنَ ٱلرَّحۡمَٰنِ﴾ إِن أَقمت على الْكفْر. وليس المراد به توقع حصول

(١) ينظر: تقنين الدعوة، للدكتور محمد السيد الوكيل: ص٢٠٢-٢٠٣.
(٢) تفسير الكشاف، للزمخشري: ١٩/٣.

المكروه؛ لأنَّ مقام إبراهيم مع أبيه مقام تخويف من عذاب الله، فالتقليل من ذلك العذاب، والتوكيد على رحمة المعذِب مما يُطمِعُ العاصي بالاستمرار في معصيته، ولا يزجره عنه(١).

ولعل ما يميز هذه النصائح الأربعة التي قدّمها إبراهيم عليه السلام لأبيه أنه صدّرَ كل نصيحة من تلك النصائح الأربعة بقوله ﴿يَٰٓأَبَتِ﴾ توسلاً إليه، واستعطافاً له(٢).

المطلب الثاني: المستفاد من دعوة إبراهيم عليه السلام لأبيه للدعوة والدعاة

بعد ما تقدم من إفاضات تجلى فيها حقيقة الرفق في دعوة إبراهيم عليه السلام وما يتعلق به من دلائل دعوية، أريد الآن الانتقال إلى ما يمكن أن نستفيده من عموم دعوة إبراهيم عليه السلام لأبيه للدعوة والدعاة؛ حتى يتم استكمال الموضوع على الوجه الأمثل.. وسيتم التركيز على ما يأتي:

الفرع الأول

الأقارب أولى بالدعوة من غيرهم

إنَّ على الداعي أن يُفقّه عموم دعوته إلى الله، ويحرص على إيصالها لكل إنسان يستطيع الوصول إليه، وهذا لا يناقض ابتداء الداعي بالأقربين إليه، فيدعوهم قبل البعيدين؛ لأنَّ لكل إنسان الحق في إيصال الدعوة إليه، فليس الأبعد بأولى من الأقرب، بل الأقرب أولى لسهولة تبليغه واحتمال صيرورته داعياً أيضاً بعد إسلامه، فيسهل إيصال الدعوة إلى البعيدين، ولهذا جاء في القرآن الكريم: ﴿وَأَنذِرۡ عَشِيرَتَكَ ٱلۡأَقۡرَبِينَ﴾(٣)، وهذا وإن كان خطاباً لرسول الله ﷺ ولكنه يشتمل معناه الدعاة إلى الله، فعليهم أن ينذروا الأقربين إليهم، مبتدئين بأفراد أسرهم وأقاربهم ومن يعرفونهم، قبل أن يبدءوا بدعوة الناس أجمعين(٤).

(١) ينظر: فقه دعوة الأنبياء في القرآن الكريم: ص١٧٩.

(٢) ينظر: محاسن التأويل، للقاسمي: ١٠١/٧.

(٣) سورة الشعراء، الآية ٢١٤.

(٤) ينظر: أصول الدعوة، للدكتور عبد الكريم زيدان: ص٣٥٧-٣٥٨.

إذن: هو منهج دعوي أصيل، ركز عليه القرآن في مواضع كثيرة من الآيات الكريمة، يقف في مقدمتها ما قام به إبراهيم عليه السلام من دعوته لأبيه قبل غيره من الناس، وتلك هي الطريقة المثلى في الدعوة إلى الله، فعلى الإنسان أن يبدأ بنفسه، ثم بأقرب الناس إليه؛ ذلك لأنَّ الداعية إذا دعا الناس لأمر وهو لم يأخذ نفسه به، يكون -عندئذ- عرضة للنقد اللاذع، والتجريح القاتل(١).

يقول الإمام ابن كثير (رحمه الله تعالى): كان أول دعوة إبراهيم عليه السلام لأبيه، وكان أبوه ممن يعبد الأصنام؛ لأنه أحق الناس بإخلاص النصيحة له(٢).

الفرع الثاني
اللطف والرفق لا يعني المداهنة

ينبغي التنبيه إلى أنَّ الله قد أمر بالرفق والتلطّف. فهل معنى التلطف مع المدعوين يعني المداهنة لهم؟ الجواب على ذلك واضح؛ فإنَّ التلطف في القول والعمل الدعوي لا يعني المداهنة على سبيل الحق وإيضاحه وتبيينه للمدعوين. وإنما هو (المداراة) التي تأتي معها النتائج المرجوة، وتُقطفُ من خلالها الثمار الدعوية اليانعة. فالمداراة والرفق مقترنان بالصدع بالحق وتبيين معالمه. ولا يمكن لهما أن ينفكا بحالٍ من الأحوال. وهذا الأسلوب قام به إبراهيم عليه السلام على أتم وجه، فقد جمع بين الأمرين (جمع بين اللطف وتبيين الحق).

وعلى هذا فإنَّ تلطف الداعي مع المدعو في القول لا يعني المداهنة، ولا النفاق، ولا إخفاء الحق وتحسين الباطل، أو الرضا بما عليه المدعو من المخالفة لشرع الله، وإنما هو من الخلق الحسن، ومن باب التشويق للمدعو لقبول الحق، والتشويق بقبول الحق أمر مشروع في الإسلام(٣).

(١) ينظر: نظرات في أحسن القصص: ص١٥١.

(٢) ينظر: البداية والنهاية: ١٦٢/١.

(٣) المستفاد من قصص القرآن للدعوة والدعاة: ص١٠٧.

وعلى هذا فلا ينبغي الظنّ بأنَّ أسلوب الرفق الدعوي عند إبراهيم عليه السلام يقتضي منه أن يكون مداهناً، حيث يلقى الفاسق المعلن بفسقه فيؤلفه ولا ينكر عليه ولو بقلبه، أو يرى منكراً ويقدر على دفعه ولم يدفعه حفظاً لجانب مرتكبه أو جانب غيره، أو لقلة مبالاة في الدين.. لا يجوز ذلك بحق عموم الدعاة، كيف بسيدنا إبراهيم عليه السلام وهو شيخ الدعاة والمرسلين!!

قال ابن بطّال (رحمه الله تعالى): ((ظنَّ من لم ينعم النظر أنَّ المداراة هي المداهنة، وذلك غلط؛ لأنَّ المداراة مندوب إليها، والمداهنة محرمة. والفرقُ بينهما بيّنٌ، وذلك أنَّ المداهنة اشتق اسمها من الدهان[١] الذي يظهر على ظواهر الأشياء ويستر بواطنها. وفسرها العلماء فقالوا: المداهنة: هي أن يلقى الفاسق المصر فيؤالفه، ويؤاكله، ويشاربه، ويرى أفعاله المنكرة ويريه الرضا بها، ولا ينكرها عليه، ولو بقلبه، وهو أضعف الإيمان... والمداراة: هي الرفق بالجاهل الذي يستتر بالمعاصي ولا يجاهر بالكبائر، والمعاطفة في رد أهل الباطل إلى مراد الله بلين ولطف حتى يرجعوا عما هم عليه))[٢].

الفرع الثالث
لا دعـوة ولا إصـلاح بلا علم ومعرفة

هذه حقيقة ينبغي أن لا يتجاهلها الدعاة، فمن علم شيئاً (والعلمُ نسبيٌ ومتفاوتٌ بين الخلائق) وجب عليه أن يبلغ ما علمه، ويدعو إليه، ولذلك صار واجباً على الدعاة إلى الله أن يتعلموا، وأن يتثقفوا، وأن يتنوروا؛ لأنَّ العلم رصيد الداعية، وكلما زاد هذا الرصيد زادت النتائج المرجو تحقيقها. وقد تقدم الحديث عن أهمية العلم في حياة الداعية.

(١) ينظر: معجم مقاييس اللغة لابن فارس: ٣٠٨/٢.

(٢) شرح صحيح البخاري لابن بطّال: ٣٠٦/٩. وينظر: عمدة القاري شرح صحيح البخاري، للإمام العيني: ١٧١/٢٢.

ولكن ينبغي المعرفة أنَّ الدعاة لا يستطيعون إحداث تغيير أصيل في مجتمعاتهم إلا إذا أثبتوا تفوقاً ذهنياً وأدبياً وثقافياً وفكرياً على القوى الثقافية الأخرى المنافسة، والتي يمتلك أفرادها وسائل وتقنيات ليست في حوزة الدعاة إلى الله، مما يجعل تفوقهم الثقافي هو نقطة التعادل بين الفريقين. وإنَّ نوعية ثقافة الداعية وقدرتها على استيعاب مشكلات العصر وتطلعات أبنائه هي المفصل الرئيس في حجم تأثير الداعية في المدعوين، وكسبهم لصالح القضايا المهتم بها، وهذه الثقافة هي التي ستكشف عن الإمكانات في الإبداعية الكامنة في الداعية؛ إذ تمثل المجال الحيوي الذي تنمو فيه المواهب والعبقريات، كما تمثل الأساليب والأدوات الفاعلة التي يرتكز عليها في أعماله الجليلة(١).

إنَّ الثقافة العلمية للداعية أمر ضروري جداً، ولذلك عدَّ الشيخ محمد الغزالي المعاصر –رحمه الله– فقرَ الثقافة العلمية للدعاة خطراً أشد من فقر الدم، وأسوأ عقبى من الفقر المالي، وكان (رحمه الله) يؤكد على أنَّ الذي يعاني الغباء والتخلف لا يصلح للمعاني، ولا يستطيع حمل رسالة كبيرة(٢).

إننا نجد إبراهيم عليه السلام حينما دعا أباه دعّم دعوته بالعلم النافع، مصحوباً بالحجة والبرهان، ولم يذكر مقولته الدعوية جزافاً دون رصيد علمي، فهو يتحدث عن علم وهبه الله له ﴿إِنِّي قَدْ جَاءَنِي مِنَ الْعِلْمِ﴾، فعنده من العلم ما ليس عند من يخاطبه ويدعوه، وحيث عنده من العلم ما ليس عند غيره فالواجب على من يدعوهم أن يتبعوه ليهديهم سواء الصراط(٣).

(١) ينظر : مقدمات للنهوض بالعمل الدعوي: ص٥٤.
(٢) ينظر : كنوز من السنة النبوية، للشيخ محمد الغزالي: ص١٢.
(٣) ينظر: نظرات في أحسن القصص: ص١٥٢.

الفرع الرابع
الإنكار والتهديد سبيل المعاندين

هناك سنة ثابتة، لا تتغير ولا تتبدل بتغير الزمان والمكان، مفادها: أنَّ الدعوة إلى دين الله لا بد أن تُقابل من قبل المعاندين والجاحدين بالإنكار والتسفيه والتجهيل والاعتداء!! وهذا ما حدث فعلاً مع سيدنا إبراهيم عليه السلام فإنه على الرغم من رفقه وتلّطفه مع أبيه في الخطاب، والتزام أقصى حدود الأدب في هذا الخطاب، واستعطافه بان يسمع منه ويقبل نصحه، ومخاطبته له بـــ﴿يَٰٓأَبَتِ﴾ ليثير فيه عاطفة الأبوة نحوه. ومع كل ذلك أجابه ذلك الأب بقوله: ﴿ قَالَ أَرَاغِبٌ أَنتَ عَنْ ءَالِهَتِي يَٰٓإِبْرَٰهِيمُ ۖ لَئِن لَّمْ تَنتَهِ لَأَرْجُمَنَّكَ ۖ وَٱهْجُرْنِي مَلِيًّا ﴾[١]. والمعنى: أمنصرفٌ ومعرِضٌ عن عبادة آلهتي يا إبراهيم، لئن لم تَنتهِ عن شتم الأصنام والطعن فيها لأقتلنك بالرجام، فاحذرني واهجرني زماناً طويلاً[٢].

والملاحظ أنَّ الأب استخدم تعبيرين مثيرين:

١. استخدم الأب لفظة الإضافة فقال ﴿ءَالِهَتِي﴾ فأضاف الآلهة إلى نفسه؛ ليبين لابنه شدة حبّه لها، وقربه منها، واستعداده للدفاع عنها، وليشير لابنه بأنَّ هذه الآلهة ليست له، ولن ينال رحمتَها وبركتَها؛ لأنه يعيبها ويسفهها[٣].

٢. استخدم لفظة النداء، ويُلاحظ أنه نادى ابنه باسمه، ولم يقابل (يا أبتِ) بـــ(يا ابني) -مثلاً-، وذلك زيادة في الجفوة والقسوة، مقابل العطف والرفق والرحمة من قِبلِ إبراهيم عليه السلام[٤].

(١) سورة مريم، الآية ٤٦.
(٢) ينظر: تفسير النسفي: ٣٣٩/٢.
(٣) ينظر: فقه دعوة الأنبياء: ص١٨٠.
(٤) ينظر: تفسير النسفي: ٣٣٩/٢.

الفرع الخامس
الحلم.. ومقابلة الإساءة بالإحسان

لما أصرّ والد إبراهيم على كفره، وردّ على دعوته بغلظةٍ وفظاظةٍ، لم يتوقف إبراهيم عليه السلام عن ممارسة الحكمة في دعوته، فانتقل عندئذ إلى قَرنِ الرفق مع الحلم، عند ذلك ردّ على أبيه بحلم وهدوء، ووعده أن يستغفر الله تعالى له.

فلم يغضب إبراهيم الحليم، ولم يفقد برّه، وعطفه، وأدبه مع أبيه، ولم يقابل إساءة أبيه له بإساءة مثلها، وإنما قابلها بالإحسان، فقال له: ﴿قَالَ سَلَٰمٌ عَلَيْكَ ...﴾ أي لا أجيبك بمكروه بعد، فهو توديع ومتاركة على طريقة مقابلة السيئة بالحسنة؛ فإنَّ ترك الإساءة للمسيء إحسان(١).

فالملاحظ أنَّ إبراهيم عليه السلام أجاب أباه -بعد ما حصل منه- بأمرين: (أحدهما): أنه وعدُه بالتَّباعُد منه؛ موافقة وانقياداً لأمرِ أبيه. (والثاني): قوله: ﴿سَلَٰمٌ عَلَيْكَ﴾ وهو توديعٌ، أي: سلمتَ منِّي لا أصيبُك بمكروهٍ، وذلك لأنَّه لم يؤمر بقتاله على كفره. وهذا يدلُّ على جواز متاركة المنصُوح، إذا ظهر منه اللَّجاج، وعلى أنَّه تَحسُن مقابلةُ الإساءةِ بالإحسان(٢).

ولم يكتف إبراهيم عليه السلام بالسلام على أبيه، بل وعده بأن يستغفر له؛ لأنه -على الرغم من كل ما كان منه- يريد نجاته وفلاحه، فقال له: ﴿سَأَسْتَغْفِرُ لَكَ رَبِّيٓ ۖ إِنَّهُۥ كَانَ بِى حَفِيًّا﴾، أي لطيفاً، رحيماً، باراً، عوّدني منه الإجابة إذا دعوته(٣). وقد قال إبراهيم عن ربه ﴿حَفِيًّا﴾ في مقابل قوله لأبيه عن الأصنام سابقاً ﴿لِمَ تَعْبُدُ مَا لَا يَسْمَعُ وَلَا يُبْصِرُ وَلَا يُغْنِى عَنكَ شَيْـًٔا﴾، فإذا كانت الأصنام لا تعرف عن عابديها شيئاً، وإذا كان الشيطان يتخلى عن أوليائه، فإنَّ الله لا يتخلى عن عباده الداعين لدينه وشرعه، وهو حفيٌ

(١) ينظر: تفسير البيضاوي: ١٢/٤.
(٢) ينظر: اللباب في علوم الكتاب: ٧٩/١٣.
(٣) ينظر: زاد المسير في علم التفسير، لابن الجوزي: ١٣٤/٣.

بهم، لطيفٌ بهم، عالم بأحوالهم، ويسمع ويستجيب دعاءهم، ومتكفل بأمورهم وحاجاتهم(١).

ولا بد من التوضيح بأنَّ استغفار إبراهيم عليه السلام لأبيه مشروط بـ(إيمانه بالله)، أي: إن آمن طلب من الله أن يغفر له، أما إن لم يؤمن، وأصرَّ على كفره، فلن يغفر الله له؛ لأنَّ إبراهيم عليه السلام يعلم أنَّ الله لا يغفر لإنسان كافر به، مات على كفره وشركه، وهذا اعتقاد جاء به جميع الرسل، ويعلمه جميع الرسل(٢).

وبعد أن تبين لإبراهيم عليه السلام أنَّ أباه لن يستجيب له، صارحه بأنه سيعتزله وقومه، ويبتعد عنهم وعن آلهتهم التي يزعمون، وينصرف إلى عبادة ربه، ليسعد بدعائه، وينال رضوانه. وكان غاية في التأدب مع ربه عز وجل، فقال: ﴿عَسَىٰٓ أَلَّآ أَكُونَ بِدُعَآءِ رَبِّى شَقِيًّا﴾، والمعنى: أرجو أن لا أشقى بعبادته، يعني: كما شقيتم أنتم بعبادة الأصنام لأنها لا تنفعكم ولا تجيب دعاءكم(٣).

الفرع السادس
القرابة لا تعني الهداية بالضرورة

بعد ما اتبعه سيدنا إبراهيم عليه السلام من أسلوب الرفق واللين مع أبيه، شاء الله أن لا يهتدي ذلك الأب. وهنا تتأكد حقيقة ثابتة في مناهج الدعاة إلى الله، وهي: أنَّ قرابة المدعو من الداعية لا تعني -بالضرورة- هدايته واتباعه لسبيل الرشاد، فكم من الدعاة إلى الله من الأنبياء وغيرهم قد كفر أقرب الناس إليه، فلم يهتدوا ولم يؤمنوا. وفيما وقع لسيدنا إبراهيم عليه السلام خير مثال. ومثله تماماً ما وقع لنوح عليه السلام من كفر ابنه وزوجته، وما حدث للوط عليه السلام من كفر زوجته، وكذلك ما وقع لنبينا الكريم ﷺ من كفر عدد من أقاربه وأعمامه... وهكذا.

(١) ينظر: القصص القرآني، للدكتور صلاح الخالدي: ص٣٢٢.
(٢) ينظر: مواقف الأنبياء في القرآن: ص١٠٥.
(٣) ينظر: التفسير الوسيط، للواحدي: ١٨٦/٣.

ولعلَّ في حوار إبراهيم مع أبيه، وعدم هداية ذلك الأب درس بليغ للدعاة إلى الله، مفاده: أنَّ عليكم البلاغ وعلينا الهداية، وفضلاً عن ذلك فإنَّ على الدعاة إلى الله الاستمرار بواجبهم الدعوي، لأنَّ المطلوب منهم أن يدعوا إلى الله وليس المطلوب منهم أن يهدوا الناس.

وهكذا كان رسل الله يدعون أقوامهم مدة حياتهم، فمنهم من استجاب له قومه أو بعضهم، ومنهم من لم يستجب له أحد(١).

يقول الإمام النووي (رحمه الله تعالى): ((لا يسقط عن المكلف الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر لكونه لا يفيد في ظنه، بل يجب عليه فعله، فإنَّ الذكرى تنفع المؤمنين، فإنَّ الذي عليه الأمر والنهي لا القبول))(٢).

إذن: ينبغي التيقن بأنَّ هذه المعاني التي يذكرها القرآن الكريم بحق أقارب بعض الأنبياء ممن لم يؤمنوا بالرسل، ولم يتابعوهم على دينهم أنه قد ذكرها لتكون دروساً لنا، ولا يعيّر أحدٌ من الدعاة بأبيه إن خرج عن دعوته، أو يؤخذ بفسوق ابنه إذا لم يتبع سبيله، أو يلام على شذوذ زوجته عن طريقته. وعندئذ لو ابتلي الدعاة بشيء من ذلك لا يهن، ولا يتوقف عن العمل، بل يتخذ من رسل الله أسوة له، ويتعزى عما نزل به بما ابتلي به أنبياء الله من قبله(٣).

الفرع السابع
الرفق سنة دعوية متواترة

لعلَّ سيدنا إبراهيم عليه السلام من الدعاة الأوائل الذين استخدموا أسلوب الرفق واللين مع المدعوين، ولكنَّ من المؤكد عليه أنَّ هذا الأسلوب متواتر عن سائر الدعاة من النبيين والمرسلين، فقد سبقه في استخدامه نوح عليه السلام ولحقه في استخدامه من أتى

(١) ينظر: أصول الدعوة، للدكتور عبد الكريم زيدان: ص٣٠٩.
(٢) شرح النووي على صحيح مسلم: ٢٢/٢.
(٣) ينظر: نظرات في أحسن القصص: ص١٥-١٥٤.

بعده من الأنبياء، كهود عليه السلام وهارون وموسى (عليهما السلام)، وكذلك نبينا الأكرم محمد ﷺ.

وإذا أردنا التدليل على صحة هذا القول، فإننا نجد -مثلاً- نوح عليه السلام يقول: ﴿... قَالَ يَٰقَوۡمِ لَيۡسَ بِي ضَلَٰلَةٞ وَلَٰكِنِّي رَسُولٞ مِّن رَّبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ...﴾[١]. والملاحظ هنا، أنَّ نوح عليه السلام رد على ما اتهموه به من الضلالة، فخاطبهم بقوله: (يا قوم)، وهو أسلوب غاية في الرقة واللطافة، لأنهم قومه ولم يتبرأ من انتسابه إليهم، ومن شأن هذا الخطاب أن يساعد على إيقاف لجاجتهم بالباطل[٢].

وقال تعالى عن هود عليه السلام: ﴿وَإِلَىٰ عَادٍ أَخَاهُمۡ هُودٗاۚ قَالَ يَٰقَوۡمِ ٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنۡ إِلَٰهٍ غَيۡرُهُۥٓۚ أَفَلَا تَتَّقُونَ﴾[٣]. فهود عليه السلام خاطبهم بكلمة (يا قومِ)؛ لأنَّ هذا الخطاب أدعى إلى استجابتهم وإلى تحسيسهم بأنَّ من يخاطبهم هو منهم في النسب، وأنه يريد الخير لهم[٤].

أما هارون وموسى (عليهما السلام) فقد أمرهما الله بإلانة القول لفرعون أثناء دعوتهما له، رفقاً به؛ لعله ينفع في هدايته. قال تعالى: ﴿ٱذۡهَبَآ إِلَىٰ فِرۡعَوۡنَ إِنَّهُۥ طَغَىٰ ٤٣ فَقُولَا لَهُۥ قَوۡلٗا لَّيِّنٗا لَّعَلَّهُۥ يَتَذَكَّرُ أَوۡ يَخۡشَىٰ ٤٤﴾[٥].

أما نبينا ﷺ فقد كان الرفق منهجه الأسمى، ولا يكاد يفارقه أو ينفك عنه، وكان مع شدة تطبيقه يوصي أصحابه وأهل بيته بتطبيقه، قال ﷺ: ((إنَّ الرفق لا يكون في شيء إلا زانه، ولا ينزع من شيء إلا شانه))[٦].

(١) سورة الأعراف، الآية ٦١.
(٢)ينظر: أصول الدعوة: ص٤٠٩.
(٣) سورة الأعراف، الآية ٦٥.
(٤) ينظر: أصول الدعوة: ص٤٤٩.
(٥) سورة طه، الآيتان ٤٣-٤٤.
(٦) أخرجه مسلم في صحيحه: ٢٠٠٤/٤ برقم (٢٥٩٤) كتاب البر والصلة والآداب.

الخاتـمة

بعد هذه الرحلة المباركة في رحاب (أسلوب الرفق في دعوة سيدنا إبراهيم عليه السلام لأبيه) فإنَّ ثمة جملة من النتائج التي نذكرها فيما يأتي:

١. يعدّ سيدنا إبراهيم عليه السلام داعية نموذجاً جامعاً، يمتلك أساليب دعوية متنوعة، أسهمت في إثراء جهوده الدعوية المباركة التي تنوعت في سعيه لهداية أسرته وأبناء مجتمعه.

٢. تعدّ جهود الأنبياء (عليهم الصلاة والسلام) معالم مضيئة في المسيرة الدعوية التي تسعى إلى نشر تعاليم الإسلام الحنيف على اختلاف العصور والدهور، وهي جهود متظافرة يمكن الاستفادة منها في إثراء المسيرة الدعوية في الوقت الحاضر.

٣. تقوم دعوة سيدنا إبراهيم عليه السلام على أسلوبين دعويين رئيسين، وهما (الأسلوب النظري) القائم على القول بتوحيد الله، وكذلك (الأسلوب العملي السلوكي)، القائم على الدعوة بالسلوك والعمل والقدوة الصالحة. وعن هذين الأسلوبين تتفرع صور عديدة من الأساليب الأخرى.

٤. إنَّ أسلوب الرفق من أهم الأساليب الدعوية، كونه يحاكي القلوب ويفتح مغاليقها والنفاذ إليها؛ لأنَّ بغير ذلك سيكون الداعي إلى الله عاجزاً عن حمل الدعوة. وبالرفق وبغيره من الأساليب الرائعة ستكتمل شخصية الداعي، وسيصبح قادراً على مخاطبة الناس وتجميعهم حول الدعوة الإسلامية.

٥. يعدّ الرفق واللين من أعظم الأخلاق التي تنبع من رحمة الإنسان، وأنَّ الدعاة مأمورون بالرفق الدعوي حتى مع أعدائهم؛ بسبب جهلهم بالأحكام الشرعية، وهو خلق يعود بالنفع على الدعوة، وهو خلقٌ مثمرٌ، وغالباً ما يكون سبباً في هداية المرفق به.

٦. ينبغي للدعاة إلى الله أن يعاملوا أقاربهم (من الآباء والأمهات والأقارب) إذا كانوا غير مهتدين بالرفق واللطف والحسنى، مع ضرورة اقتران ذلك بالصراحة والوضوح في الصدع بالحق لما يدعوهم إليه.

وصلى الله على سيدنا محمد

وعلى آله وصحبه وسلم تسليماً كثيراً

المصادر والمراجع

وهي بعد القرآن الكريم، مرتبة بحسب حروف الهجاء على النحو الآتي:

١. إبراهيم أبو الأنبياء، للأستاذ عباس محمود العقّاد، دار الكتاب العربي، لبنان.
٢. أساس البلاغة، أبو القاسم جار الله الزمخشري، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان.
٣. أصول الدعوة، للدكتور عبد الكريم زيدان، مؤسسة الرسالة، بيروت، لبنان.
٤. البداية والنهاية، أبو الفداء إسماعيل بن كثير الدمشقي، دار إحياء التراث العربي، بيروت.
٥. تاج العروس من جواهر القاموس، محمد بن محمد بن عبد الرزاق (المرتضى الزبيدي)، دار الهداية.
٦. تاريخ الطبري المسمى (تاريخ الرسل والملوك) محمد بن جرير الطبري، دار التراث، بيروت، لبنان.
٧. تذكرة الدعاة، الأستاذ البهي الخولي، مكتبة دار التراث، القاهرة، الطبعة التاسعة، ١٤٢٤هـ- ٢٠٠٤م.
٨. تفسير ابن كثير المسمى (تفسير القرآن العظيم)، أبو الفداء إسماعيل بن عمر بن كثير الدمشقي، دار الكتب العلمية، بيروت.

٩. تفسير أبي السعود، المسمى (إرشاد العقل السليم إلى مزايا الكتاب الكريم) العمادي محمد بن محمد، دار إحياء التراث العربي، بيروت.
١٠. تفسير البيضاوي المسمى (أنوار التنزيل وأسرار التأويل)، ناصر الدين أبو سعيد عبد الله بن عمر البيضاوي، دار إحياء التراث العربي، بيروت.
١١. تفسير الطبري المسمى (جامع البيان في تأويل آي القرآن)، محمد بن جرير الطبري، مؤسسة الرسالة، بيروت، لبنان.
١٢. تفسير الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل، أبو القاسم محمود بن عمر جار الله الزمخشري، دار الكتاب العربي، بيروت، ط٣، ١٤٠٧هـ.
١٣. تفسير النسفي المسمى (مدارك التنزيل وحقائق التأويل)، أبو البركات عبد الله بن أحمد النسفي، القاهرة.
١٤. التفسير الوسيط المسمى (الوسيط في تفسير القرآن المجيد)، أبو الحسن علي بن أحمد الواحدي، دار الكتب العلمية، بيروت، ط١، ١٤١٥هـ- ١٩٩٤م.
١٥. تقنين الدعوة، للدكتور محمد السيد الوكيل، دار المجتمع للنشر والتوزيع، المملكة العربية السعودية، ط١، ١٤١٤هـ-١٩٩٤م.
١٦. ثقافة الداعية، للدكتور يوسف القرضاوي، مكتبة وهبة، القاهرة، الطبعة الخامسة عشرة.
١٧. دراسات تاريخية في القرآن الكريم، للدكتور محمد بيومي مهران، جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية، الرياض، ١٤٠٠هـ-١٩٨٠م.
١٨. الدعوة الإسلامية، أصولها ووسائلها، للدكتور أحمد غلوش، دار الكتاب المصري، ط١، ١٩٨٧م.
١٩. الدعوة الإسلامية، منهجها ومعالمها، الأستاذ الدكتور أحمد عمر هاشم، مكتبة غريب، القاهرة، ط١، بدون تاريخ.
٢٠. الدعوة إلى الله، للدكتور محمد سيدي بن الحبيب، دار عبد الله الشنقيطي، مكة المكرمة، ط١، ١٤٣٢هـ-٢٠١١م.

٢١. الدعوة إلى الله على ضوء الكتاب والسنة، الأستاذ حسن مسعود طـــوير، دار قتيبة للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت، لبنان، ط١، ١٤١٣هـــ- ١٩٩٢م.
٢٢. ركائز الدعوة في القرآن، للأستاذ محمد إبراهيم شقرة، المكتبـــة الإســـلامية، المملكة الأردنية الهاشمية، عمّان.
٢٣. زاد المسير في علم التفسير، جمال الدين أبو الفرج عبد الرحمن بن الجوزي، دار الكتاب العربي، بيروت.
٢٤. شرح صحيح البخاري لابن بطّال، أبي الحسن علي بن خلف، مكتبة الرشـــد، السعودية، ط٢، ١٤٣٢هـــ-٢٠٠٣م.
٢٥. شرح النووي على صحيح مسلم، أبو زكريا محي الدين يحيـــى بـــن شـــرف النووي، دار إحياء التراث العربي، بيروت، ط٢، ١٣٩٢هـــ.
٢٦. صحيح مسلم، للإمام مسلم بن الحجاج أبو الحسن القشيري النيـــسابوري، دار إحياء التراث العربي، بيروت.
٢٧. على هامش فقه الدعوة، المستشار علي جريشة، دار البشير للثقافة والعلـــوم الإسلامية، مصر، طنطا، ط١، ١٤١١هـــ-١٩٩١م.
٢٨. عمدة القاري شرح صحيح البخاري، أبو محمد محمود بن أحمد العينـــي، دار إحياء التراث العربي، بيروت.
٢٩. الفتاوى الكبرى، لشيخ الإسلام تقي الدين أحمد بن تيمية الحراني، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان.
٣٠. فتح الباري بشرح صحيح البخاري، لابن حجر العـــسقلاني، دار المعرفـــة، بيروت، ١٣٧٩هـــ.
٣١. فقه دعوة الأنبياء في القرآن الكريم، للدكتور أحمد البراء الأميري، دار القلم، سورية، دمشق، ط١، ١٤٢٠هـــ-٢٠٠٠م.
٣٢. في رحاب الدعوة، للعلامة أبي الحسن الندوي، مكتبة الفارابي، دمشق، ط١، ١٤٢٥هـــ-٢٠٠٤م.

٣٣. في ظلال القرآن، سيد قطب، دار الشروق، بيروت، الطبعة السابعة عشرة، ١٤١٢هـ.

٣٤. قصص الأنبياء، أبو الفداء إسماعيل بن عمر بن كثير الدمشقي، مطبعة دار التأليف، القاهرة.

٣٥. القصص القرآني، للدكتور صلاح الخالدي، دار القلم، دمشق، ط١، ١٤١٩هـ-١٩٩٨م.

٣٦. كنوز من السنة النبوية، للشيخ محمد الغزالي، دار الشروق، القاهرة.

٣٧. اللباب في علوم الكتاب، أبو حفص سراج الدين عمر بن علي بن عادل الحنبلي، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان.

٣٨. لسان العرب، جمال الدين ابن منظور الإفريقي، دار صادر، بيروت، الطبعة الثالثة، ١٤١٤هـ.

٣٩. مباحث في الدعوة ومناهجها وأساليبها وبعض رجالها، للدكتور عبد الخالق إبراهيم، مؤسسة النجوم الهاشمية، مصر، ١٩٩٧م.

٤٠. محاسن التأويل، محمد جمال الدين بن محمد القاسمي، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان.

٤١. المحكم والمحيط الأعظم، أبو الحسن علي بن إسماعيل بن سيده، دار الكتب العلمية، بيروت، ط١، ١٤٢١هـ- ٢٠٠٠م.

٤٢. مختار الصحاح، زين الدين أبو عبد الله بن أبي بكر الرازي، المكتبة العصرية، بيروت.

٤٣. المدخل إلى علم الدعوة، (دراسة منهجية شاملة) للدكتور محمد أبي الفتح البيانوني، مؤسسة الرسالة، بيروت، لبنان، ط٣، ١٤٢٢هـ-٢٠٠١م.

٤٤. المرأة المسلمة وفقه الدعوة إلى الله، للدكتور علي عبد الحليم محمود، دار الوفاء للطباعة والنشر والتوزيع، المنصورة، ط٥، ١٤٢٤هـ- ٢٠٠٣م.

٤٥. مروج الذهب ومعادن الجوهر، أبو الحسن علي بن الحسين المسعودي، دار الفكر، بيروت، ط٥، ١٣٩٣هـ.
٤٦. المستفاد من قصص القرآن للدعوة والدعاة، للدكتور عبد الكريم زيدان، مؤسسة الرسالة ناشرون، ط١، ١٤٢٧هـ- ٢٠٠٦م.
٤٧. المفردات في غريب القرآن، أبو القاسم الحسين بن محمد (الراغب الأصفهاني) دار القلم، دمشق.
٤٨. مقدمات للنهوض بالعمل الدعوي، للدكتور عبد الكريم بكار، الدار الشامية، بيروت، ودار القلم بدمشق، ط١، ١٩٩٩م.
٤٩. مع الأنبياء في القرآن الكريم، عفيف عبد الفتاح طبّارة، دار العلم للملايين، بيروت.
٥٠. معجم البلدان، شهاب الدين أبو عبد الله ياقوت الحموي، دار صادر، بيروت، ط٢، ١٩٩٥م.
٥١. معجم مقاييس اللغة، لأبي الحسين أحمد بن فارس بن زكريا، تحقيق، عبد السلام هارون، دار الفكر للطباعة والنشر، بيروت.
٥٢. المغرب في ترتيب المعرب، أبو المكارم برهان الدين الخوارزمي المُطرزي، دار الكتاب العربي، بيروت.
٥٣. المنتظم في تاريخ الملوك والأمم، جمال الدين أبو الفرج بن الجوزي، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان.
٥٤. من صفات الداعية اللين والرفق، للدكتور فضل إلهي، دار الاعتصام للطبع والنشر، القاهرة، ٢٠٠٨م.
٥٥. مواقف الأنبياء في القرآن (تحليل وتوجيه)، للدكتور صلاح عبد الفتاح الخالدي، دار القلم، دمشق، ط١، ١٤٢٤هـ-٢٠٠٣م.
٥٦. نظرات في أحسن القصص، للدكتور محمد السيد الوكيل، دار القلم للطباعة والنشر والتوزيع، ط١، ١٤١٥هـ-١٩٩٤م.
٥٧. هداية المرشدين إلى طرق الوعظ والخطابة، للأستاذ الشيخ علي محفوظ، دار الاعتصام، القاهرة، ط٩، ١٣٩٩هـ-١٩٧٩م.